حسـن العطـار

(١٧٧٦-١٨٣٥م=١١٨٠-١٢٥٠هـ)

الشيخ العالم

obeikandl.com

فى الوقت الذى خيم فيه الظلام والجهل والضعف والتأخر على بلاد المسلمين قرب نهايات الخلافة العثمانية، لم يخل الأمر من نقطة ضوء، تمثلت فى بعض العلماء المسلمين من أبناء الأزهر الشريف، الذين كانوا فى طليعة العاملين على التجديد والتحديث وبعث النهضة الفكرية، والأخذ بأسباب الحضارة والمدنية الحديثة.

ومن هؤلاء العلماء «الشيخ حسن العطار»، الذى يُعد بحق من أعمدة المدرسة الثورية التى ثارت على أسس الحياة السائدة فى المجتمع المصرى فى بداية القرن التاسع عشر، ودعت إلى تغييرها على الأسس لروحية والدينية الرحبة للإسلام، مع الأخذ بمنجزات الحضارة الغربية الوافدة، وإبراز قيمة الإنسان فى الحياة، والجمع بين الأصالة والمعاصرة، سعياً للتجديد فى فكرنا الحديث، وبنياننا الحضارى.

مغربى مصرى:

والشيخ «حسن العطار» من مواليد القاهرة سنة ١٧٧٦م-١١٨٠هـ. وترجع أصوله إلى بلاد المغرب العربى، وكان والده عطاراً وله إلمام بالعديد من العلوم، وشجع ابنه على هذا الاتجاه لما وجد عنده من ميل إلى العلوم، وساعده على الالتحاق بالأزهر، حيث زامل المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى وإسماعيل الخشاب فى حلقات الدراسة، فقرؤوا معاً على الشيخ محمد الصبان، وعلى الشيخ مرتضى الزبيدى والشيخ محمد الأمير النحو وفقه اللغة. ونشأت بينهم صداقة حميمة على الرغم من تباين اتجاهاتهم وتكويناتهم الفكرية. وكانوا جميعاً فيما بعد من أبرز الدعاة وأكبر الرواد فى الدعوة إلى النهضة الفكرية الحديثة والمنادين بضرورة الأخذ بالعلوم العقلية والوضعية.

الثورة على القديم:

وهذا الميل إلى العلم والموضوعية والعقلانية فى التفكير، دفعه إلى الثورة على القديم، وعلى ثقافة عصره التقليدية الجامدة، ويرفض مناهج مدارس الشرح على المتون والحواشى والتقارير، والنقل من كتب السابقين.

وفى هذا يقول: «فإن قصارى جهدنا النقل عنهم، بدون أن نخترع شيئاً من عند أنفسنا، وليتنا وصلنا إلى هذه المرتبة، بل اقتصرنا على النظر فى كتب محصورة نكررها طوال العمر، ولا تطمح نفوسنا إلى النظر فى غيرها، حتى كأن العلم انحصر فى هذه الكتب».

وقد وصل «الشيخ العطار» إلى هذه الرؤية بعد أن درس العلوم العصرية من طبيعة وهندسة ومنطق وفلك وعلوم ورياضة.

ولَمّا دخل الفرنسيون مصر، فوجئ الأزهرى الشاب بمجيء الحملة فخاف وفر فيمن فر من العلماء إلى الشام، فلما هدأت الأمور عاد إلى مصر، ولم يقصر فى الاتصال بعلمائهم كما قصرَ أهل الأزهر، ولم يقعد عن البحث فى سر نهضتهم وقوتهم كما قعد أهل الأزهر، فعرف من سر نهضتهم ما لم يعرفوه، واطلع على بعض علومهم، وشاهد بعض ابتكاراتهم العلمية والصناعية وأبدى إعجابه به، وتمنى أن تكون لبلاده مثل هذه النهضة.

وكان يداوم على الذهاب إلى المجمع العلمى المصرى، حيث يستمع إلى ما يُلقى فيه من محاضرات، ويطلع فى مكتبته على ألوان مختلفة من العلوم والآداب والفنون العصرية.

إضافة إلى كثرة أسفاره، فقد أخذ نفسه بالسياحة فى الأقطار الإسلامية من الشام وغيرها، فلقى كثيراً من العلماء فى تلك السياحة، ونقّب فيها عن كثير من كتب المتقدمين التى أهملها علماء عصره، فاستفاد كثيراً من سياحته، وارتفع بها عن أهل الأزهر بعد أن عاد إليهم. وكان يؤمن بأهمية الاطلاع والنظر فى كتب غير أهل الإسلام.

فى حاشيته على شرح جمع الجوامع فى أصول الفقه، يستطرد فى بعض المواضع إلى لوم أهل الأزهر على إعراضهم عن كتب المتقدمين فيقول: «إن من تأمل فى علمائنا السابقين يجد أنهم كانوا مع رسوخ قدمهم فى العلوم الشرعية، لهم اطلاع عظيم على

غيرها من العلوم، والكتب التى أُلِّفَتْ فيها، حتى كتب المخالفين فى العقائد والفروع. وأعجب من ذلك تجاوزهم إلى النظر فى كتب غير أهل الإسلام من التوراة وغيرها من الكتب السماوية واليهودية والنصرانية، ثم هم مع ذلك ما أخلُّوا فى تثقيف ألسنتهم برقائق الأشعار، ولطائف المحاضرات، ومن نظر فى ذلك وفيما انتهى إليه الحال فى زمن وقعنا فيه، علم أننا منهم بمنزلة عامة أهل زمانهم، فإن قصارى أمرنا النقل عنهم بدون أن نخترع شيئاً من عندنا».

القرب من الوالى:

وعندما تولى «محمد على باشا» عرش مصر، قرب إليه الشيخ «حسن العطار»، الذى تأثر بما كان يبذله من تلك الجهود الجبارة فى النهوض بمصر فى العلم والصناعة والزراعة والتجارة. وكان الشيخ أثيراً ومقرباً من الوالى الجديد الذى كان يقدر حبه للعلوم والمعارف، ويقدر له مكانته بين علماء الأزهر، فقد كان يجمع بين الثقافة العربية والثقافة الغربية، ويجيد عدة لغات منها التركية والفرنسية والألبانية. إضافة إلى كونه شاعراً مجيداً وكاتباً عميقاً، وكان يدعو إلى إدخال العلوم الحديثة وجلاء التراث العربى وتنقيته مما لحق به من عوامل التخلف. لكل هذه الأسباب اختاره «محمد على» ليتولى منصب مشيخة الأزهر سنة ١٢٤٦هـ (١٨٣٠م).

وأثناء توليه مشيخة الأزهر كان يُحزن نفسه غفلة أهل الأزهر عن الأخذ بأسباب النهوض، وركودهم عن مسايرة ركب الإصلاح، فكان يرى الدنيا تسير بجوارهم وهم ساكنون، ويرى الأحوال تتغير فى مصر وهم لا يتغيرون.

وكان شعار الشيخ العطار: «أن بلادنا يجب أن تتغير أحوالها وتتجدد بها المعارف» وانطلاقاً من هذا الشعار وجه تلميذه «رفاعة الطهطاوى» عندما كان مسافراً مشرفًا على البعثة العلمية التى أرسلها محمد على إلى فرنسا، لتسجيل كل ما تقع عليه عينه فى فرنسا، وأن يستجلب معه كل ما تقع عليه يده من دفاتر وكتب، وهو الذى شجعه على الترجمة، وتأسيس مدرسة الألسن».

وقد اهتم «الشيخ العطار» اهتماماً كبيراً بعلم الجغرافيا واهتم بالخرائط، واستفاد من خبرة علماء الحملة الفرنسية، وانكب على عيون الكتب المهجورة وبسطها لطلابه، وبدأ أول خطوة فى فن الفهرسة؛ بحيث يعود الطلاب إلى المراجع القديمة بسهولة.

الاهتمام بالعلوم:

وكان الشيخ موفور النشاط دائب الحركة، يدرس ويصنف المؤلفات، ويشرح الكتب، ودفع طلابه إلى الخروج عن التراكيب اللغوية العقيمة، وتحرير الكتابة من قيود الصنعة التى شاعت فى عصور الانحطاط.

ورغم ميل «محمد على» إلى الطغيان والاستبداد، إلا أنه كان يجلُّ «الشيخ العطار» ويستشيره، وأطلق يده فى النهضة العلمية، ففتح الأبواب للعلوم الحديثة، وأشرف على إنشاء المدارس المتعددة. وكان توليه منصب مشيخة الأزهر، إيذانا بتصاعد قوة تيار التقدم والتطور المستمر فى مواجهة قوى الجمود والتخلف فى الحياة العامة المصرية، وإن كان البعض يقول أن «الشيخ العطار» كان بإمكانه أن يحدث ثورة فكرية ضخمة، ولكنه لم يكن على شجاعة الحاكم «محمد على» الذى شمر عن ساعده عندما أدرك حاجة مصر إلى الإصلاح، وأخذ يعمل فيه بكل حزم وعزم. فى الوقت الذى وقف فيه «الشيخ حسن العطار» من إصلاح الأزهر موقفاً ضعيفاً، واكتفى بذلك الصوت الخافت الذى أرسله فى مواضع يصعب العثور عليها من حاشيته على شرح جمع الجوامع، وأنه كان يجب عليه أن يجهر بهذا الصوت بين جنبات الأزهر.

رائد نهضة:

ولكن هذا الرأى لا يقلل أبداً من جهد هذا الشيخ الذى مهد الطريق إلى نهضة فكرية جديدة، فمن عباءة هذا الرائد العظيم خرج الطهطاوى، ليحدث ثورته الفكرية من خلال كتابى «تخليص الإبريز» و«مناهج الألباب» ودوره فى إرساء معالم مدرسة الفكر الحديث من أجل العلم والديمقراطية وسيادة العقل.

كما أنه كان مجدداً فى الشعر العربى، وفتح الطريق أمام شعراء النهضة كالبارودى

obeikandi.com

وشوقى وحافظ(*).

وقد عُرف الشيخ حسن العطار بمؤلفاته الكثيرة، كما عُرف بأسلوبه الأدبى وعباراته الإنشائية الأنيقة، وله أشعار رقيقه، اما ميله إلى الطب والفلك والعلوم الطبيعية والرياضية، فيدل عليه كتبه ورسائله فى كيفية عمل الإسطرلاب، والطب والتشريح، وأشكال التأسيس فى علم الهندسة، بالإضافة إلى إتقانه رسم المزاول الليلية والنهارية بيديه.

وظل الشيخ حسن العطار على ما كان عليه من نشاط وجمع بين التدريس بالأزهر ومهام المشيخة إلى أن توفى سنة ١٨٣٥م (١٢٥٠هـ).

ثروة علمية:

وقد ترك فضيلة الإمام الشيخ حسن العطار ثروة علمية كبيرة تربو عن العشرين مصنفاً منها: حاشية العطار على الجواهر المنتظمات فى عقود المقولات، حاشية العطار على التهذيب للإمام الخضيبى، حاشية العطار على شرح نموذجى فى المنطق، حاشية العطار على شرح العصام على الرسالة، حاشية العطار على كتاب نيل العادات فى علم المقولات، حاشية العطار على جمع الجوامع فى أصول الفقه، رسالة فى علم الكلام، حاشية العطار على كتاب «موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب»، حاشية على شرح الأجرومية، منظومة العطار فى علم النحو، إنشاء العطار فى المراسلات، رسالة فى كيفية العمل بالإسطرلاب، نبذة فى علم الجراحة، مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس، شرح كتاب الكامل للمبرد. كما ترك ديوان شعرى يحتوى على مئات القصائد.

وهكذا جمع الشيخ العطار بين علوم الدين والدنيا، وكان بحق رائد من رواد نهضتنا الفكرية، ومن الممهدين الطريق لعصر جديد من العلم والفكر. وفتح باب الأمل فى عودة الروح إلى الشعب المصرى الذى حاولوا تغييبه وراء ستائر الظلام والتخلف.

(*) صلاح عبد الصبور، قصة الضمير المصري الحديث، كتاب الإذاعة والتليفزيون، ١٩٧٢، ص٢٠.